

عُرس الأحلاق بالبرائة

ومقام البيت في ذلك

بقلم الأستاذ سلامة موسى

بيت من بيوت القاهرة يحتوى عائلة كثيرة الأولاد قد استأجرت خادمة صبية من الريف بأجر رخيص . وقد انتقلت هذه الصبية وهي في الثانية عشرة من بيئة الحقل ونقل السماد والتقى في الشمس الى بيئة الحضارة في القاهرة حيث المنزل الذى فرش بالسجاد وأضيء بالمصابيح الكهربية ، وحيث المائدة التى يجب أن تمسح وتنظف بعد كل وجبة ، وحيث الاستحمام وغسل الملابس لا ينقطعان . فالانتقال عندها من الريف الى القاهرة ليس انتقالا جغرافيا فحسب ، وإنما يجب أن يكون انقلابا نفسيا أقل ما يحتاج اليه أن تتغير هذه الصبية في إدراكها لمعاني النظافة والمواعيد ورنه الصوت ، وأن تغير هندامها الجسمي ثم هندامها الذهني . ولكن الصبية ليست كفؤا لهذا الانقلاب . أوهو يسير فيها ببطء ، وهي لذلك تصطدم مع الأولاد اصطدامات متوالية . تخرج من المنزل لشراء حاجة فتسير في الشارع على الأسلوب الذى تعلمته في الريف متوانية متلفتة متطلعة ثم تعود متأنرة فيعاملها الأولاد بالسباب والضرب . وقد تطلب منها ربة البيت تنظيف الأطباق أو غسل الجوارب فتؤدى هذين العملين وفقا لمستوى النظافة الذى بلغته في الريف حين كانت تفصل "نوبها" على حافة التربة بلا صابون وبلا حاجة الى غلي الماء . فتجد من سيدتها أيضا السباب والضرب .

والتأمل لهذا البيت لا يسهه إلا الشعور بأن هذه الصبية هي الآن وسيلة لتمرير أعضاء هذه العائلة على أسلوب من المعاملة يقوم على السباب والبطش والكرامية والاحتقار . فإن ألفاظ " يا بنت الكلب " " والله لأموئك " تجرى على ألسنة الأولاد في البيت عند مخاطبتها وأحيانا تمتد أيديهم بالضرب وأرجلهم بالركل لجسمها الصغير . فالخادمة معذبة ومعذورة . لأنها نشأت على أقيسة ريفية في النظافة والإنجاز لا تستطيع تغييرها بأقيسة المدينة . فهي لذلك تضرب لكي تغير هذه الأقيسة . ولكن الأولاد أيضا قد وجدوا فيها مرآة جديدة للأخلاق . هذه الأخلاق التى نتعلمها في البيت والشارع أكثر جدا مما نتعلمها في المدرسة . ونحن نحرس على ألا يختلط أولادنا بالصبيان الفاسدين من البيوت المجاورة . ولكننا ننمى أن في وسط بيتنا صبية خادمة يتدربون بها على الشتم والضرب وسائر ألوان العنف . وأنهم سينشأون على اتخاذ العنف وسيلة للمعاملة . فقد تعلموا مع هذه الصبية حين كانوا يفضبون

منها أن يعبروا عن هذا الغضب بالشم والضرب . فيجب لذلك أن نعرف انهم لن ينسوا هذا الأسلوب حين يسبون ويفضبون من زملائهم أو رؤسائهم . لأننا وقت الغضب نعود الى أسلوب الطفولة ونعمل به . فإذا كنا قد تعلمنا التمالك والأناة فإننا نتمالك ونتأني . وإذا كنا قد تعلمنا السباب والضرب فإننا نسب ونضرب . لأن الغضب لا يترك لنا مجالاً للتفكير . فقد نعيش السنين ونحن نعتقد أننا نمتاز بالأخلاق الهادئة واننا نكره الاعتداء والعنف . بل ربما كان هذا اعتقاد من يعاملوننا . ثم تصادفنا حادثة في الطريق أو المكتب فننفجر بالسباب أو نعتدى بالضرب . حتى اذا انتهت فورة الغضب نعود على انفسنا باللوم متعجبين من هذا الانفجار . والحقيقة ان هذا الأسلوب قد تعلمناه في الطفولة حين كنا نعامل الخدم ونضربهم .

ولذلك لا يسعنا إلا أن نعد مثل هذه الصبية الخادمة في هذا البيت من أسوأ الوسائل لتربية الأولاد . إذ هي بمثابة ” أرب التجربة ” في معمل العالم . ومن هذه التجربة يخرج الأولاد وقد تعلموا الوقاحة والصياح والعنف . ولكن ميزة هذه الصبية أنها رخيصة . ولذلك تحرص ربة البيت على استخدامها وتأثرها على خادمة مسنة يحترمها الأولاد ويعاملونها بالحنى ويحاطبونها بقولهم ” ياخاله ” لأنهم وهم يعاملونها باللفظ المهذب والإيماء الرقيقة والرفق في الطلب والأناة عند التأخير سيتخذون هذا الأسلوب أخلاقاً دائماً تمش معهم وتلازمهم سائر حياتهم حين يسبون ويختلطون بالمجتمع . أو بكلمة أخرى نقول إن احترام الخادم ضروري لاحترام المجتمع واننا لهذا السبب يجب ألا نعرض صبياننا لخادمة صغيرة يرهقونها بالواجبات التي لم تستعد لها من بيتها الريفي وترهقهم بالمخالفات فيلجأون الى العنف ثم يرسخ هذا العنف فيهم عادة وأخلاقاً .

ونحن نتعلم الأخلاق بثلاث طرق هي : اللقن أو الوعظ . وهذه أقل الطرق أثراً إذ هي لا تختلف كثيراً من تعلمنا للسباحة بقراءة كتاب يصف لنا السباحة على الظهر وعلى البطن ونحو ذلك . ثم نتعلم الأخلاق أيضاً بالقدوة أي أننا مثلاً نرى أبويننا يسلكان سلوكاً خاصاً فنقتدى بهما . وكثير من أخلاقنا العامة نأخذ به بالقدوة من الآباء والأخوة والغرباء ممن نعالمهم ومن زملاء المدرسة والمكتب أو المصنع أو المتجر . ولكن الطريقة الراجعة لفرس الأخلاق هي المرائة . ولكي نوضح التفاوت بين هذه الطرق نضرب مثلاً : فنقول إننا لكي نعلم أولادنا الشجاعة :

١ — يمكننا أن ننصح لهم ونلقنهم ونعظهم عن قيمة الشجاعة ولكنهم بعد كل هذا لن يكونوا شجعاناً إلا في الأقل النادر بل الشاذ .

٢ — يمكننا أن نكون أمامهم شجعاناً نمارس بعض المهام والأعمال في شهامة ونجدة وهم عندئذ يتأثرون بنا ويعود سلوكنا أمامهم إيناء لنفوسهم .

(٣) ولكن أعظم أثرا من هذين الطريقتين أن نمرنهم على الشجاعة بالألعاب الرياضية والفروسية والمباريات وحمل السلاح . إذ أننا هنا قد غرسنا أخلاق الشجاعة غرسا بالتمرين والتدريب .

وكذلك الشأن في البرأ والاستقامة أو الكياسة :

(١) فقد قول للصبى يجب أن - سن على الفقير ، ويجب أن تساعد الضعيف وتسعف الجريح . وهو يسمع ولكنه سبنى .

(٢) وقد رانا الصبى ونحن نحسن على الفقير فيتأثر بأخلاقنا ويقتدى بنا أو لا يقتدى .

(٣) ولكن الطريقة الناجعة لكي نغرس فيه البر أن نعطيه الفرش ونطلب منه أن يؤديه بيده للفقير ، أو أن نجعله يؤدي خدمة لأحد المحتاجين ويحس منها أنه قد ساعده بجهده وتعبه أو نجعله عضوا في جمعية خيرية يهتم بشئونها ويؤدي مهامها .

ومن هنا ضرر الخادمة الريفية الصغيرة التي يتدرب الأولاد في البيت على شتمها وضربها . فأننا نغرس فيهم الأخلاق عن سبيلها هنا بالمرانة والممارسة ؛ في حين لو كانت هذه الخادمة كبيرة مسنة محترمة لاحترموها ومارسوا احترام المجتمع والأفراد عن سبيلها ثم يفسأون مهذين ، وليس تهذيبهم عندئذ عائدا إلى التلذذ والنصيحة . ولا إلى القدوة ، وإنما هو يعود إلى المرانة والممارسة .



ولننظر نظرة أخرى في غرس الأخلاق ، فقد سبق أن ذكرت هذه المجلة وكررت القول في أن البيت يجب ؟ ألا يكون مطما أو قنقا ، وكان الهدف لهذا القول هو الزوج .

ولكن هل خطر ببالنا أن الأولاد أحيانا ينظرون إلى البيت هذه النظرة ؟ ويقفون منه هذا الموقف ؟ ونحن المسؤولون عن موقفهم هذا ؟

لقد أوضحنا في المئين السابقين أن عاطفتي الشجاعة وثبر إنماتفرسان في لطفل أو الصبى أفضل الفرس وأثبتة بالمرانة والممارسة . ولكن هل خطر لنا أن حب الأولاد لأبويهم محتاج أيضا إلى مرانة وممارسة ؟

إن الطفل ونحن نشتري له الحلوى أو اللعبة يحبنا وينتظر منا الزيادة . ولكنه بعد سنوات حين يدخل المدرسة لا يجد منا الحلوى أو اللعبة التي كانت تثير فيه من قبل عاطفة الحب لنا . ثم هو ينشغل بدروسه وينتظر من والديه " واجبات " وكذلك من الخدم . وقد ينتهي بالأ يؤدي أى عمل للبيت بل ينتظر من الجميع خدمته . ونحن ننسى أن هذا الموقف الذى يقفه الصبى من البيت سوف يقفه أيضا من المجتمع . أى أنه ينتظر من غيره أن يخدموه ولا يكلف نفسه خدمتهم ، ولذلك تنشأ في نفسه أمانية سيئة ربما تكون سببا لخيبته في المستقبل .

وعاطفة الحب تنشأ عندما نخدم الناس أو يخدمونا . لأننا نحس حين نخدم أحدا أننا نتفضل عليه ونجهد ونتعب من أجله . وهذا بمثابة الجهد الذى تنفقه على صنع أداة يبعث فيها الحب لها . فإذا خدم الأولاد فى البيت أحدهم من هذه الخدمة حبا للبيت وتعلقوا به وشعروا بكرامتهم لإزاءه . وهو عندئذ لا يكون فندقا أو مطعما . فالحب يحتاج إلى مراعاة . ومراسته هى العمل والخدمة . فمر. مصلحة الأولاد أن يشتركوا فى بعض الواجبات — مهما تكن صغيرة قافهة — فى البيت حتى تنبعث فيهم عاصفة الحب مقرونة فى نفوسهم على الدوام بالخدمة والإنجاز .

ومن المشاهد أن التعلق بالأبوين المسنين كبير فى الأبناء أى أكبر من التعلق بالأبوين حين يكونان دون الخمسين مثلا . ولا تكاد نعرف سببا لذلك إلا أن عجز الشيخوخة قد بعث الأبناء على العناية بآبائهم وخدمتهم . فكان من أثر هذه العناية وهذه الخدمة أن نمت عاطفة الحب عندهم .

وخلاصة القول إننا لكى نغرس الأخلاق الحسنة فى صبياننا يجب علينا :

- (١) أن نكفهم عن ممارسة السباب أو الضرب للخدام أو لا نستخدم سوى خادمة أو خادم محترم لا يجرؤ الأطفال على سبه أو ضربه .
- (٢) أن نعوّدهم الخدمة فى البيت حتى تزول عنهم الأنانية والشعور بأنهم يجب أن يكونوا مخدومين لا خادمين .
- (٣) أن نعوّدهم سائر الأخلاق بالمرانة أو الممارسة . فالاستقامة فى المعاملة والشجاعة والبر والحب يجب كلها أن تستند إلى ألوان من النشاط الجسمى .
- (٤) أن نذكر على الدوام أن الأسلوب الذى تعلمه الطفل فى البيت هو الأسلوب الذى سيعامل به المجتمع عند ما يكبر .

سلامه موسى